

التصور اللغوى عند العرب

بقلم البر أحمـر خليل

يعنى الناس من حولنا فى الشرق وفى الغرب بدراسة لغاتهم وبيان أثرها وتأثيرها بسواها رجاء اللفت إلى مالها من ماض فى خدمة افكر وما عسى أن تسهم به فى مستقبل بعين الانسانية الواعية على التمكن والقوة ، وقد تنوعت أبحاث اللغويين وتباينت أحياناً وجهات نظرهم فى هذا اللون من الدراسة تباين الميادين المختلفة التى يعملون فيها ويثشطون لها ، ونحن هنا ، لن نعرض لبيان هذه الاتجاهات المختلفة ولا لما كان من أثر فى تنمية الوعى اللغوى وتوجيهه فلذلك كله ميدان آخر يتبع له الوقت وتأذن به شواغل الحياة فيما بعد .

أما وقد تجاوزت دعوات هائفة بين دارسى العربية للعناية الدقيقة بهذه الجوانب المختلفة من الدراسة ابتغاء المعرفة الواسعة بحياة هذه اللغة معرفة تعين المصدين لإصلاحها فيما يرون على أن يبدأوا أولى خطواته من تيسير لقواعد النحو وتخفيف من أعباء الكتابة فيها إلى غير ذلك مما تسمع عنه كل يوم - أما وقد قرأت وسمعت عن كل أولئك وكاد يعصف الشك يقينك فى كل مقرر ورثته عن حياة هذه اللغة حتى كدت تحس إحساساً حاراً مشفقاً أنها لغة متخلفة وأنها لم تعد صالحة كما كانت لتسع هذه الحضارة الجديدة التى امتدت جلودورها فى كل ناحية من نواحي الحياة وربما كان ذلك هو الذى مال بشبابنا عن العناية بلغتهم ودفع بهم إلى الضجر الآثم أحياناً بما كان لأسلافهم من أثر فى نهضة الدرس اللغوى الذى عرفته الانسانية المثقفة منذ مئات السنين - أما وقد عرفت هذا كله واطمأنت نفسك إلى بعضه واستبدت بك الريبة فى كثير منه وحاول هزلأه أن يفتنوك الى جديد رينتون أن يملوا به لغتك ويبتغوا به تفعلك فأكثروا من اتقوا عن علماء اللغات الأخرى وجدوا فى أن يشعروك أن ما وصلوا اليه من مصطلحات - جديد

في الدرس اللغوي يمكن أن تستفيد به العربية في حاضرها وأن يعمق به درس أصحابها لما كما أرادوا أن يمدعوك عن واقع تعيش فيه وتحس آثاره فجاهلوا أن يلقوا في روعك أن العربية التي تتكلمها والتي تفكر بها بينها وبين المجتمع من حولك جفوة شديدة ؛ فهي لغة معزولة في بطون الكتب ودفائن المراجع ، أما هذه العامية فهي اللغة المتطورة ، وهي أدق وسائل التفكير والتفاهم وهي الحالية بضروب من الصور الفنية الرائعة ، المنزعة من هذه الحياة الاجتماعية المترابطة التي تعيشها ، ومن هنا ظهرت اتجاهات كثيرة عن اللغة والمجتمع تحدد اللغة محديداً أوروبياً خالصاً وتطبيقها تطبيقاً عاماً جارفاً وما بين هذا التحديد والتطبيق من قرون طالت أعمارها فلم يلفت هؤلاء الدارسين ولم يكن له في حسابهم من أثر لأنها قرون التخلف والانزوال والتراخي عن ملاحظة الحياة في سيرها الدائب وتطورها المتجدد .

تلك هي خطة سير هذه الأبحاث التي وقفت منها حائراً مشفقاً وتلك هي الضمائر الخفية التي تدفعها الى الوجود في قلق ألبسوه ثوب العلم وضور عرضوه معرض الحفة والرشاقة .

وما عليهم بهم إذ مضوا في هذه السبيل فلن تستطيع أن تردهم الى شيء مما يجب أن يقدروه في أمانة الدرس اللغوي وما علينا إلا أن نقول لهم كما قال أسلافنا أن أولى خطى التجديد قتل القديم بحثاً وأن التجديد القائم على الهوى مصيره القلق والحيرة والتردد ثم الموت فلتبعد الى ما كنا فيه - من الحديث عن تطور التصور اللغوي عند العرب .

.....

الواقع أن الخطوة السليمة لدراسة العربية والوقوف على خطى تطورها ومدى ما كان لهذا التطور من أثر في حياتها أن يبدأ الدارس أولاً بتحديد مفهوم اللغة في أذهان أصحابها والمتكلمين بها ثم جلاء الدوافع المتعددة التي دفعت بهم الى تدريج حياتها بما يسير تطور الحياة ونموها وبما يكشف عن مسالك اتصالها بغيرها من الشعب التي انتهت اليها الحياة الاسلامية في العلم والأدب والفلسفة والاجتماع الى غير أولئك من ضروب المعرفة

المختلفة التي اتصل بها العرب اتصالاً مباشراً في حواضرهم المتعددة على ما كان لهذه الحواضر من تاريخ يفغى أن يكون له تقديره في حياة هذه اللغة ، ولا أرتاب في أن هذه اللحظة سوف تحدد معالم الطريق تحديداً يوسع آفاق هذه الدراسة ويجلو بعض الغامض من حياة العربية ويرد على توهمي الجمود أنها لم تجمد لأنها كائن حي متطور يفعل وينفعل ويأخذ ويدع ، على أن هذا المفهوم الذي نحاول الكشف عنه قد تطور هو أيضاً تطور العصور والبيئات والمعارف واختلفت اختلاف هذه الميادين كلها ، فاللغة في ذهن العربي الخالص غيرها في ذهن المستعرب وهي تأخذ في أساليبها صوراً مختلفة اختلاف هذه الأذهان وتتشاكل أحياناً تشاكل الشخصيات المتكلمة بها والمتعملة لها متى كان هناك قلم مشترك من دوافع الحياة ونوازع العيش ، ومناجيع الفكر ولعل هذا يفسر لنا بعض وجوه اختلاف المذاهب الفقهية اختلافاً يرتد إلى اختلاف هذا المفهوم - روى الطبري^(١) في تفسيره اختلاف الفقهاء في تفسير « أو لامتم النساء ، رأي العرب والموالي في معنى اللبس وما كان لهذا التفسير من أثر في اختلاف الحكم الفقهي وما ترتب عليه من اختلاف في واقع العبادة العملي - وحكاية الطبري لرأي العرب والموالي في تفسير هذه اللفظة يدل بجمته على اختلاف المفهوم اللغوي في أذهان المتكلمين بهذه اللغة وما ترتب عليه من أثر في الفهم والتأويل كما يدل على أن هذا الاختلاف ذو علاقة كبيرة بماضى المتكلمين بهذه اللغة والمستعملين لها .

وفي هذه الفترة التي تراكمت فيها الأقول المختلفة في كتب التفسير مقررة أمر هذا الاختلاف نجد أدبياً كما يلاحظ يقرر أمر هذا الاختلاف لا من ناحية المفهوم اللغوي بل من جهة الاستعمال وبخاصة بين أهل الأمصار التي استقر بها العرب القاطنون فيقول : « وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ولذلك نجد الاختلاف في ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر »^(٢)

(١) الطبري - جامع البيان ج ٥ ص ٦٥

(٢) الجاحظ - البيان والتبيين لشر عبد السلام هارون ١٨

على أن هذا الاختلاف كان ينتهي أحيانا إلى نماذج أدبية يحاول أهلها أن يرقوا إليها . ولم يكن الشعر أحد هذه النماذج ولم يكن سبيله سبيل المتكلمين بالعربية في أساليبهم بعد أن اتسعت الحضارة الإسلامية وشملت ألوانا من المعارف منها ما يتصل بالفكر كالفلسفة ومنها ما يلبس الوجدان كالتصوف ومنها ما يدفع بالحياة العملية التي يحياها الناس إلى التأسق والقوة كالفقه والتشريع فإذا عرفنا أن هذه الأمصار كانت مراكز الحضارة الإسلامية وأن لغات أهلها كانت أعمق اللغات وأخصبها وأقدرها على الحياة أحركت مدى الاجادة والدقة في لغات أهلها واستطعنا في دقة مقارنة أن ندرك إخلاصهم لهذه النموذجية التي يحكيها الجاحظ إذ يقول نقلا عن ابن الناذر : أما ألفاظنا فالحكي الألفاظ للقرآن وأكثرها له موافقة فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم ، أنتم تسمون القدر برمة ونجمونه على رام ونحن نسميه قدرا ونجمعه على قدور ثم يستطرده الجاحظ فيذكر أن أهل هذه الأمصار ربما أبقوا في لغاتهم العربية على بعض ألفاظ استعاروها من ماضي أمصارهم ولغاتها القديمة ومن هنا يشير الجاحظ إلى منهج خاص في دراسة اللغة واللهجات - عن طريق النصوص ليعرف المدارس أي الألفاظ أكثر شيوعاً وأدقها استعمالاً وأوفها في تأدية المعاني .

هذه النقول وأشباهاها تدل على أن العالم الإسلامي منذ اثني عشر قرناً كان يضطرب بعوامل التصارع بين الأجناس المختلفة التي ساطت دعاؤها في الحضارة العربية الإسلامية التي تحمل بين أطوارها عوامل التجاذب والتدافع والتخلف شأن كل حضارة تنشط للحياة الكاملة في الدور الأول من وجودها وتكونها والجاحظ نفسه مدرك تماما هذه الحيرة الثائرة التي تسلب بعقول المفكرين والعلماء حين فجأتهم الحياة الجادة بهذه الألوان المختلفة من المعرفة التي لا بد أن تكون العربية لغة التعبير عنها . . .

في هذه العمرة الدافقة من المعارف نجد ابن جني يبدأ درسه اللغوي على أساس البحث في طبيعة اللغة ويبدأ بتعريفها فيقول ان اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، ويبدو أن هذا التعريف أو هذا التصور

لغة كان أشد التصورات تأثيراً في نفوس الدارسين وفيما كتبه عن طبيعة اللغة بل كان الموجه فيها بعد لتطور التأليف اللغوي وتنوعه وما عسى أن يكون فيه من شمول يربط بين اللغة وبين الاتجاهات المختلفة في دراستها ، ولأن اللغة أصوات تختلف من جيل إلى جيل ترى طائفة كالمعتزلة ذهبت إلى أن اللغات ثبتت اصطلاحاً (١) ومعنى هذا أن اللغة هي هذا الصوت الذي تضق عليه مجموعة من الناس بحيث يكون مؤدياً لمعنى له في حياتهم مكان وفي تفكيرهم أثر وفي اجتماعهم نفع أو ضرر .

وبذلك فتح المعتزلة باب التصرف في أساليب الدرس اللغوي فلم تكن تمت حواجز تحول بينهم وبين هذه الرغبة بل أكد ابن جني أن اللغة قد تعرف بالقرائن وأن من قال أنها لا تعرف إلا نقلاً فقد أخطأ والطبري نفسه يؤكد هذه الصوتية ويرى أنها هي التي تتحكم في سير الأداء اللغوي وفي تنسيق حياته ومن ثم نراه يرفض في إصرار انقراضه بالكيفية كقراءة بعضهم وأنه أهلك عاداً الأولى ، وأنها لا تصح إلا لعربي يدرك دقة أداء الصوت أما للمولود فلا تصح (٢) لأن أداءه إياها يقصر به عن بلوغ الغاية التي لا ينالها إلا عربي خالص . . . ثم جاء على أثر هؤلاء فخر الدين الرازي فأشار إلى أن الألفاظ بما لها من خاصية الصوت أقرب الوسائل وأيسرها في أداء المعاني كما وصل بين هذه الصوتية وبين المجتمع في تشابك حاجاته وتواصل غاياته فقال « إن السبب في وضع الألفاظ الحاكية للصوت أن الإنسان وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لابد من التعاون ولا تعاون إلا بالتعارف ولا تعارف إلا بأسباب . . . ثم يمضي في بيان أسباب هذا التعارف مفاضلاً بينها ومعللاً لاختيار الألفاظ بأنها توجد عند الحاجة وتعدم عند عدمها . . . والفخر الرازي في تصويره المحمل للحياة اللغوية وعلاقتها بالاجتماع الإنساني يلوك تماماً تطور الحياة اللغوية السريع المتصل وبحس إحساساً دقيقاً بما يتصل بهذا التطور من اشتقاق واختراع لألفاظ

(١) الزمزم ج ١ ص ٢٨

(٢) الطبري - جامع البيان - تفسير سورة النجم

جديدة تفي بحاجات هذه الحياة المتجددة . . . ويبدو أن الدعوة الى الاختراع والتوليد والاشتقاق قدمة في المجتمع الاسلامي يوم التفت على أرضه حضارات وتفاعلت ثقافات وجدت بالناس اليها حاجة ملحة يقول قدامة^(١) [الاختراع] ما اخترعت له العرب أسماء مما لم تكن تعرفه فيما سموه بإسم من عندهم تسميتهم الباب في المساحة باباً أبي أن ينقل عن أرسطو رأيه في الاختراع وأنه قانون عام تخضع له جميع اللغات .

وفي هذه الفترة التي تظهر فيها فكرة "الصوتية" تظهر نظرية في النقد الأدبي تقول : إن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي وغير العربي وإنما يتفاضل الناس في التعبير عنها وقلرتهم على التثليل الدقيق لها ، ومن العجيب أن يكون الجاحظ من أنصار هذه النظرية والداعين إليها ثم يكون لها فيما بعد آثار بيّنة في المتناولين لقضية الاعجاز القرآني ، ولكن يظهر أن المعاني التي يقصدها الجاحظ هي المعاني الأدبية العامة إذ أن صنيعة في كتاب الحيوان يُعدّل هذه النظرية فقد قدر عنصر المعنى وأبان في إجمال عن دقته وبين حظ اللغة في الوفاء بالدلالة عليه ولعل قدامة كان أنفذ منه رأياً حين قدر وظيفة اللغة من ناحية ارتباطها بالمجتمع واتصالها بالوان الحياة فيه - فدعا الى الاختراع . ويظهر أن ما دعا اليه قدامة . . . كانت سبقته إرهاسات حتى في اليبات الأدبية وقد أشار ابن جني نقلاً عن بعض علماء اللغة الى ما كان لشافعي - في ذلك . . . فقال : « القياس يجري على اللغة وعزا هذا الى الشافعي رضي الله عنه ثم قال - ولم يدل عليه نصه وإنما دلت عليه مسانته وليس بين أيدينا من كتب الشافعي غير الرسالة وفيها نظرات لغوية تدل على ما وراءها من عوامل كان يضطرب بها العالم الإسلامي يومئذ كذلك الدعوة التي أفرد لها الشافعي صفحات طويلاً عن نقي تأثر العربية بغيرها من اللغات واتجاهه الى القول بالاتفاق في الوضع اللغوي اذا وجدت

(١) قدامة - نقد النثر ص ٦٣

(٢) المصانص ص ٥٩

مشابهة بين ألفاظ عربية وأخرى غير عربية « ولعل هذا الذي يشير إليه ابن جنى نقلاً عن بعض علماء اللغة معزواً إلى الشافعي بنصه أو بما يدل عليه صيغته هو ما يمكن أن يستفاد من حديثه عن العربية بعامة وأنها أوسع اللغات وأرحبها مذهباً . . .

إلى جانب هذه اللغات الدقيقة في بيان وظيفه اللغة في المجتمع وصلتها به ثم تعاون اللغة والمجتمع في ميادين الفكر والأدب والتفلسف نجد دارسي العربية يدركون اختلاف طرائق المتكلمين بالعربية والمتعلمين لها في صياغة الألفاظ ثم الأساليب وعلاقة هذا كله بدقة الأسلوب وجودته . فيشيرون إلى الاستعمال عند العربي والمولد والحدث (١) وهي إشارات فيها كثير من الدقة وتقدير أصيل لسير الحياة الإسلامية وما تركته من أثر في الحياة اللغوية ثم لما كان لاتصال الحضارات المختلفة بالحضارة الإسلامية وكيف أثر هذا كله في القيم اللغوية انورثة فعديل بها أحياناً عن طريقها الأول في الأداء اللغوي بل أن ما لاحظناه نظرياً من قبل من التفرقة بين العربي والمولد في قراءة النص القرآني يدل على مدى ما كان لهذا الاتصال من أثر

هذا التاموس العام في حياة اللغات بعامة من التأثير والتأثر قد دفع بكثير من الأوروبيين أحياناً إلى مجانبية القصد في دراسة العربية إذ ربطوا بينها وبين المقررات الإسلامية وحاولوا شيئاً من هذه الدراسة التاريخية لألفاظها لا رغبة في البحث العلمي ولا حرصاً على نفع العربية ذاتها بل إكمالاً لما بدأوا به نشاطهم الأول الذي كان هدفاً من أهداف التعصب وقد أشار إلى ذلك جملة " Sweetman " في كتابه Interrelation between Islam and christianity

(١) الرسالة صعبة . مصنفه محمد بن ١٤ - ١٦
(٢) الإيضاح في علوم اللغة الثلاثة ص ٤

بما لا حاجة بنا معه الى إيراد بعضه بله الإشارة اليه غير أنا وقد
 أشرنا الى شيء من صنعهم في تأريخ بعض الألفاظ العربية نعرض وجهة
 نظرهم في هذه الدراسة ، يقول كاتب مادة لغة في دائرة المعارف للعلوم
 الاجتماعية (1) ما ترجمته « من بين هذه التغيرات اللغوية المدينة
 إلى هذه التماذج الواضحة من الاتصال والتي تؤدي دوراً هاماً في تاريخ
 اللغة - استعارة كلمات من لغة ما ، وهذه الاستعارة تسير جنباً الى جنب
 مع الاتصال الحضارى بين أمة وأخرى وإن حرصنا التحليلية لبعض
 هذه الكلمات عمل جليل يكشف عن اتجاه التأثير الحضارى . . . »
 ثم ضرب مثلاً لذلك باللغة الإنجليزية وكيف تأثرت باللاتينية واليونانية
 والفرنسية وسواها من اللغات التي احتكت بها أو اتصلت بحضارتها ،
 ثم يرى كاتب هذه المادة أن تأثر اللغة الناقلة باللغة المنقولة لا يقف
 عند هذا بل يتجاوزه الى تأثير الصوتيات في اللغة الناقلة فيقول : « إن التأثير
 الصوتي الحادث من اللغة المنقولة ربما كان بالغ الأهمية وهناك كثير من الدلائل
 التي تكشف عن كثير من الخصائص اللغوية التي نشأت نتيجة لنقل الصوتيات
 عن طريق العادات اللغوية . »

هذا الذى يلاحظه كاتب هذه المادة وهو ترجمة لما لاحظته من قبل
 علماء اللغات الأخرى -- قد لاحظته علماء المسلمين منذ مئات السنين
 وقد نقلت بعض اشاراتهم اليه - وقد فطن الى هذا اللغويون من أصحاب
 الحديث فأشاروا اليه تفصيلاً ولفتوا إلى ما كان لتداخل اللغات من أثر
 في فشو اللحن وتيسير أمر التصحى على الناس واتخاذ ذلك كله أداة للتظرف
 وما أعقب هذا كله من تطور سريع في دلالة الألفاظ تطوراً بلائح
 الحياة الإسلامية (1) .

(1) Encyclopedia of the Social Science 164

(2) ابن لاثير - النهاية في غريب الحديث ج ١ مقدمة .

هذه الصوتية التي حدت اللغة بها لغويو العرب كان لها آثارها العملية في دراسة خصائص الحروف ومخارجها في أفرادها وتركيبها وما قد يكون لهذا كله من أثر في أداء المعاني واللفظ اليها ، ولا شك أن القرآن الكريم كان الموجه الأول لهذه الدراسة وتجدد أشارات بيته في الكتاب لسبويه ثم جاء من بعده ابن ستان الخنجاكي فكتب كتابه سر المصاححة - عن تنافر الصوتية وتآلفها في اللغة وأثر ذلك في البناء اللغوي - وربما كانت ملاحظة صوتية اللغة - قد ارتبطت بالدين عند المشاركة وتركت أثرها فيما بعد عند المفكرين اللغويين من الأوروريين فقد كانت اللغة منذ فجر التاريخ لغة الدين وللتدين أسرار ينبغي أن تتضمنها اللغة باعتبارها أداة التعبير عن معانيه المختلفة .

وربما كان المتصوفة من أشد الناس تعلقاً بهذه الأسرار ورغبة في الوصول إليها وصنعهم في ذلك امتداد لمحاولات مبكرة لتحديد العلاقة بين الأسرار الدينية وبين اللغة وقد أشرت الى ذلك في أبحاث مضت كان للمهنود فيها السبق الأول وقد عرض (Robert Lowrie) في الفصل الذي عقده عن التصور البدائي للروح الى هذه الروحية التي تكمن في كل شيء .. وأن هذه الظاهرة قد شاعت بين المجتمعات البدائية . . على أنه لم يفتن الى هذه المرحلة التي تطورت فيها الحياة الانسانية حين نزلت الأديان السماوية . . ثم إن Tylor فيما نقله عنه Lowrie قد عرف Animisme بأنه الاعتقاد في الكائنات الروحية ثم قال ومن ثم فإننا سوف نأخذ في هذا الكتاب بهذا التعريف ولكن ماذا يقصد بالروحي : إن الروح طبقاً لما ورد في معاجم اللغة تشخص في الكائن الذي هو أعلى من الطبيعة سواء أكان خيراً أم شراً .. إلى أن يقول ونحن متفقون على أن الروحية تمثل اتجاهها مضاداً للوجود المادي . .

إلى جانب هذا التصور اللغوي عند الصوفية الذي كشف عنه « تايلور » وعمله زمنياً بحياة المجتمعات البدائية - نجد تصوراً آخر عند العقليين

من المفكرين اللغويين وهم الذين اتصلوا بالفلسفة وبالمنطق الأرسطي وعاشوا عليهما زمناً . . . وقد نجد هذا النوع من التصور واضحاً عنه الأصوليين ولذلك كانت المقدمة اللغوية عندهم من أدق وأولى ما كتب وما يكتب عن الحياة اللغوية منذ نشأت اللغة الى أن أصبحت كائناً معقداً البناء والتركيب، غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن الأصوليين لم يزعوا منزع المنطق الشكلى الصورى في بناء الأسلوب على هذه القوالب الجافة والتي تعتقد فيها الصورة المنطقية بما قد يصعبها على الفهم كما في «الموجهات» وأنواعها وإنما حرصوا على فكرة الأسوار المنطقية لارتباطها بالحكم الشرعى فى عمومها وخصوصه ثم على بعض الأشكال القياسية لتحديدتها للمجال الذى يصح أن يسمى فيه المتصدى للاستنباط الفقهى ، وربما كان العرب من أوائل المفكرين الذين فطنوا إلى قيمة هذه الشكلية فى صياغة الفكر الانسانى وإلى ما قد يكون فيها من خطأ مضلل أحياناً - وإلى أن المدار كله على صحة القضايا التي يتألف منها الشكل القياسى كله .

وهذه التفرقة بين الشكلية ومضمون القضية قد أشار إليها جملة Antony Flow فقال ما ترجمته (1) إن من الأصول الأولى أن نترك أن التشابه النحوى والمفارقات ربما تكون مضللة منطقياً حتى أن النوع الجديد للنقد المنطقى الذى أعرضه - فى هذا المجلد - قد يتطور هو الآخر وهذا كله ينتهى الى أن القضايا المهمة نحويّاً ربما تكون غير مشهورة وللمعروفة بين القضايا المنطقية والعكس بالعكس . . فالصلة إذن بين النحو والمنطق فى بناء التركيب اللغوى قد تنبه إليها لغويو العرب فى صورة مقارنة أو لا تقل فى دقتها عما وصل إليه الباحثون المحدثون .

وهكذا نجد أن اللغة بحكم وظيفتها الاجتماعية سلوك متميز لأنواع خاصة من الكائنات الحية وقد نقلنا بعض نقول عن علماء ومفكرين إسلاميين تؤكد هذه الوظيفة وتعلل لوجودها وتصل بينها وبين الاجتماع

للإنسانى فى أوجه نشاطه المختلفة . . على أن هذا كله هو ما وصل إليه علماء الغرب بعد طول الدرس يقول قائلهم ما ترجمته (١) :

هناك بعض خصائص عامة تشترك فيها كل اللغات سواء منها الحية والميتة وما يأتى فى المكانة الأولى من هذه الخصائص أنها نظام لرموز صوتية للتعبير عن الفكر والشعور الذى يستطيع التعبير عنه - إلى جانب أنها ترتبط بالأوتار الصوتية لتلكائنات الثديية العليا .

ولم يكن ما قاله كاتب هذه المادة جديداً تؤخذ به أو نراه لازماً للإفادة منه فى درسا اللغوى فقد لاحظته من قبل السكاكى فى مفتاح العلوم فعرض لهذه الفكرة تفصيلاً ورسم كيف يحدث الصوت وأشار إلى العوامل التى تؤثر فى حدوثه من احتكاك وارتخاء وانفجار وشمس إلى غير أولئك . . بل أن لغوى العرب وصلوا بين هذه الأوتار فى أدائها للصوت اللغوى وبين المعنى الذى تعبر عنه هذه الألفاظ من ناحية تأثيرها فى النفس وما قد يذبح عنه من رغبة أو رهبة بل زادوا على ذلك أنهم نظروا إلى الصوتية فى التركيب اللغوى كله ولعل هذا يفسره صنيعهم فى أول أبحاثهم عن البلاغة والفصاحة واعتدادهم تألف الأصوات من أصل الأصول فى البنية الأدبية .

وإذ قد ساقنا الحديث إلى الكلام عن الدلالة اللغوية أو كما يسميها المحدثون Semantics. وإلى علاقتها باللفظ المعبر عنها فلا معنى من أن نشير إلى ما كان للغوى العرب من أثر فى هذه الناحية وما قد يكون لهم من تفكير خاص سبقوا به سواهم من دارسى اللغات .

لقد يقظ العرب إلى فكرة المعجم منذ عصور مبكرة تقديراً منهم لسير الحياة اللغوية وارتباطها بالاجتمع وحرصوا على أن يصنفوا معاجمهم تصنيفاً يتبع هذه الصوتية وقد ظهر ذلك أول ما ظهر فى كتاب العين

كما أنهم حرصوا على رواية كل ما يحدد معاني الألفاظ من الشعر وغيره وقدروا اختلاف القبائل في الاستعمال ومن هنا ظهرت أبحاث عن المترادف والمتضاد على أن منهم من أنكر مبدأ المترادف لأن فيه تساهلاً في التفرقة بين دلالة الألفاظ وتحويلنا لأمر الدقة في الاستعمال وما يذكره (١) الراغب في مقدمة مفرداته عن معنى الريب والشك يؤكد ذلك .

ويظهر أن المسلمين كانوا أول من قدر اختلاف الدلالة باختلاف البيئات المستعملة لألفاظ اللغة ومن هنا تعددت معانيهم واختلفت اختلاف الميادين التي يعمل فيها الفكر الإسلامي فعجم الحديث وآخر للقرآن وثالث للتجوز الأدبي ورابع للمصطلحات - وفي سبيل المعرفة بسير تطور الدلالة وجدت أبحاث خاصة في الاشتقاق وأنواعه وكان القصد منه تطويع اللغة لتكون أداة التعبير عن ضروب المعاني المختلفة بشرط أن يكون هناك معنى مشترك يربط بين هذه الاشتقاقات المختلفة قبل أن تتفرق بالمادة اللغوية سبل الحياة . . . ويظهر أن ابن جني أول من فصل القول في هذا الاشتقاق فقسمه إلى صغير وكبير .

هذا هو المضطرب الواسع الذي تطور فيه التصور اللغوي عند العرب وكان من أمره ما رأيت في البيئة الإسلامية وما انفرد به كل لغوي من ملحوظ أثره بالعناية دون سواه إلى أن تم انفصال العلوم اللغوية واستقل كل منها عن الآخر حين اتجه دارسو العرب إلى دراسة الأسلوب فرى شراح تلخيص المفتاح ينقلون عن الزمخشري ما يحدد العلاقة بين هذه العلوم إذ يقولون : « أعلم أن علم العربية على ما قال الزمخشري يرتقى إلى إثني عشر علماً غير أن أصولها أربعة وهي اللغة والتصريف وبينهما النحو فإن التراكيب هي المقصودة منه » ثم يقولون (٢) « أن علمي أصول الفقه والمعاني في غاية التداخل فإن الخبر والانشاء اللذين يتكلم

(١) الراغب الأصفهاني : مفردات القرآن : المقدمة .

(٢) شروح تلخيص : ج ١ ص ٥٢ .

عنهما علم المعاني هما موضوع علم الأصول وأن كل ماتكم عليه الأصول
من أن الأمر للوجوب أو النذب أو التحريم ومائل الأختيار والعموم
والخصوص والاطلاق والتقييد . . . كلها ترجع إلى موضوع علم المعاني
وليس في أصول الفقه ما ينفرد به غير الحكم الشرعى .

فقد رأينا إذن أن التصور اللغوى قد انتهى آخر الأمر إلى دراسة عامة
هى دراسة الأسلوب وأن درسم إياه قائم على المفاضلة بين طرق الأداء
وبيان أشدها تأثيراً فى النفس وتصويراً للمعنى . على أنه ينبغى أن نشير
إلى أن العرب لم ينفردوا الأسلوب العلمى بالدراسة مفرقين بينه وبين
الأسلوب الأدبى ولعل ذلك مرده إلى اتصال البلاغة بالإعجاز القرآنى
وبدراسة الشعر خاصة غير أن هذا النص الذى نقلناه عن شرح التلخيص
والذى يسوون فيه بين الأصول والمعاني وذلك لارتباط كل منهما بالحكم
الشرعى الذى يراد استنباطه لتصحيح واقع عملى يقوم على حقائق من ماديات
الحياة . . . هذا النقل بجملة يندى على التفات العرب إلى الفرق الواضح
بين الأسلوب العلمى والأدبى على النحو الذى أشار إليه Wren إذ يقول
ما ترجمته « وثمة مبدأ جديد فى دراسة اللغات إذ يقسمها إلى لغة دالة
وهى التى تستعمل فى تقرير الحقائق ولغة عاطفية أو شعرية وهى التى تعمل
على إثارة الأحاسيس والمواطف ومن نقطة البدء هذه ينبغى أن نعرف
أن اللغة العاطفية لا تعد أداة للتعبير عن الحقائق » .

هذا الشعور الدقيق بالفرق بين الأسلوب العلمى والأدبى اللذين يمثلهما
علم المعاني والبيان هو الذى دفع الأستاذ أمين الخولى فى كتابه فن القول
أن يرد على البلاغيين دراستهم لباب القصر والفصل والوصول ويرى
أن موضوعهما علم النحو لأنهما موضوعان لتصحيح المعاني ولا مندوحة
لكاتب أو أديب أن يستعمل سواهما إن أراد القصر أو الفصل على حين
تقوم البلاغة على المفاضلة بين الأماليب .

وفي القرن الثامن الهجري يعرض ابن خلدون في مقدمته منهجه في دراسة الأسلوب . . ويظهر أنه كما درس أسلوب العيش وطرائق الحياة اعتد من بينها الأسلوب الكلامي لأنه أداة التعبير عن هذه الأشياء كلها ولعل هذا يفسره قوله . . إن اللغة ملكة صناعية ، كما يفسره لنا تحديده للأسلوب بأنه الملكة التي تأتي عن طريق ممارسة النصوص واستشفاف ما فيها من جمال تؤديه اللغة وقد عرض ابن خلدون الى علاقة الأسلوب العلمي بهذه الملكة مما لا حاجة بنا الى إيرادها (١) . .

ومنذ سنوات كتب الأستاذ محمد خلف الله أحمد مقالا عن العوامل التي أدت الى تبلور اللغة الأدبية وتقنينها (٢) وهي محاولة طيبة أشار فيها الى المراحل التي ساءت فيها اللغة الأدبية حتى العصر الحاضر ، كما عرض فيها الى رأى المرصفي الذي هو في واقع الأمر ما ارتآه ابن خلدون منذ قرون

هذا هو التصور اللغوي عند العرب لمن أراد التجديد في دراسة العربية في هذه الفترة من حياتنا .

(١) zrenn : the English of Language p. 3

(٢) ابن خلدون المقدمة ص ٥٧٨ - ٥٧٩

(٣) الأستاذ محمد خلف الله - مجلة كلية الآداب سنة ١٩٥٥ Early stages in the Development and Standardisation of arabic literary language.

المراجع

مراجع عربية :

ابن الأثير	التهمة في غريب الحديث
ابن سنان الخفاجي	مرائضها
السيوطي	المزهر
الشافعي	الرسالة
الطبري	جامع البيان
الجاحظ	البيان وتبيين
ابن جنى	الخصائص

المراجع الأوروبية :

- (1) *Insyclopedia Of the Social Sciences.*
- (2) *Wiem — the English Language.*
- (3) *Lowrie : Essys on Language and Logic.*